الفصل الثاني

ابن المقفع وعصره

- أولاً: الحياة السياسية والعلمية ، والاجتماعية في عصر ابن المقفع.
- ثانياً: نشأة ابن المقفع وحياته وسماته ومؤلفاته.

obeikan.com

obeikan.com

❖ أولاً: الحياة السياسية والعلمية ، والاجتماعية في عصر ابن المقفع.

الحياة السياسية:

ينتمي ابن المقفع للعصرين الأموي والعباسي الأول ، وقتل في عهد أبي جعفر المنصور. ويمكن التعرف على ملامح تلك الفترة من خلال عرض موجز للحياة السياسية والاجتماعية في العصرين الأموي والعباسي.

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة واعتمدت في سياستها المالية على تنظيم سياسي عسكري ، وإداري دعامته سلطة الولاة في أجزاء الخلافة، وهى سلطة تستند إلى قوة عسكرية تتألف نواتها . في أكثر الأحيان . من جند الشام، وخصوصا في فترة الاضطرابات. وقد أدت السياسة الاقتصادية والمالية للإدارة الأموية ، إلى تفسير حركات المعارضة ، والانتفاضات المسلحة وسببا في سقوط الخلافة الأموية في نهاية المطاف (الجنحانى ، 2005 ، 191-197). وقضت الدولة الأموية على البذور الديمقراطية ، وأخذت النزعة الاستبدادية في الإيغال... فالأمويين استولوا على الملك عنوة ، وهذا ما يقوله معاوية صراحة فهو منذ البداية ينفي أنه تولي الحكم برضا الناس ، بل ويستخف بهذا الرضا (إمام ، 1994 ، 216). وكان ابن المقفع في العقد الثالث تقريبا من عمره في ذلك الوقت.

وتختلف الآراء حول الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية ثم سقوطها في سنة 132هـ وبعض هذه الأسباب يتجه إلى تحلل الأسرة المراونية من داخلها ووقوع النزاع على السلطة بين أفرادها ، ذلك النزاع

الذي كان مرده إلى السياسة الخاطئة التي سار عليها الأمويون في توليهم العهد اثنين يلي أحدهما الآخر.. وبعضها يرجع لانشغال خلفاء بني أمية بلذاتهم عن تفقد أمور الدولة ، وإلى ظلمهم للرعية ، حتى يأسوا الناس من إنصافهم فتمنوا الراحة منهم (إسماعيل ، 1975 ، 15). وقامت الدولة العباسية عام 132هـ وفيه أعتلى أبو العباس السفاح الخلافة ، ثم توارثه بعده المنصور والمهدي وغيرهم.

وبانتهاء العصر الأموي ، استهل السفاح حكمه بإخراج جثث خلفاء بني أمية من قبورهم وجلدهم وحرق جثثهم ونثر رمادها في الريح ولم يستمر حكم السفاح سوى أربع سنوات وتسع أشهر ، وبويع بعده أخوه أبي جعفر المنصور عام 136هـ بعهد منه (إمام ، 1994 ، 217). وفي شأن انتقال الإمامة من الأمويين إلى العباسيين ، اتضح من حديث للجابري عن العقل السياسي العربي ، أهمية أن يكون هناك التحام للإيديولوجيات العربية أو ما أسماها بالكتلة التاريخية...والتي فيها يصبح الفكر جزءا من بنية كلية وليس مجرد انعكاس أو تعبير عن بنية ما. أكد الجابري أن: (حسن ، 2010 ، 152) هذه الكتلة التاريخية تحققت في الثورة العباسية على الأمويين ، حيث شاركت فيها جميع القوى الاجتماعية التي كان التغيير في مصلحتها من عرب وموالي وزعماء قبائل عربية وفرس، وحدث التوافق الضروري بين العقيدة والقبيلة والغنيمة ، بوصفهم الثلاثية التي تشكل العقل السياسي العربي.

العصر العباسي عصر بالغ التعقيد ، ومتداخل تداخلا مذهلا. ومن ثم فإن فهم أي مكون من مكوناته بمعزل عن المكونات الأخرى لا يمكن أن ينتهي إلى تصورات كاملة أو دقيقة. فهناك على سبيل المثال صراع بين الشيعة

والعباسيين حول شرعية الحكم ، وفي الوقت نفسه هناك صراع بين المعتزلة وأهل السنة ، والشيعة مع أهل السنة. ويقاس على ذلك موقف كل العناصر السياسية والاجتماعية ، والفكرية المكونة لكيان الدولة. والأدب كان دائما أداة التعبير لكل العناصر المتصارعة ، فتمثل صورة هذا التعقيد في حياة المجتمع (إسماعيل ، 1975 ، 8).

وكان قتل ابن المقفع في عهد المنصور تعبير عن هذا الأمر. فالمنصور فكان رجل هيبة وشجاعة وحزما وجبروت ولم يكن صاحب لهو بل كان رجلا جادا جماعا للمال ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ويؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء ، وغدره بمن آمنه ، الأمر الذي حط شأنه في نظر التاريخ... فكان يرى أنه سلطان الله في أرضه. ولقد أقام العباسيون حقهم في الملك على أساس أنهم ورثوا بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة في دولة ثيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين في عهدهم وفي عهد الأمويين من قبلهم (إمام ، 1994 ، 219-227). إلى أن تسلم أبي جعفر المنصور سدة الحكم ، وقضى على معارضيه بحربهم ومن ثم استتب الحكم للعباسيين واطمأنوا إلى شريعة حكمهم. "وقد أسس العباسيون حكمهم على مبدأ أنهم يحكمون بحق إلهي ، أي أنهم أوصياء الله في أرضه ، وقد أعلن ذلك أبو جعفر المنصور نفسه حين قال: "إنما أنا سلطان الله في أرضه " فأضفي بذلك خلفاء العباسيين على أنفسهم منذ البداية لونا من القداسة فأهدروا باسم هذه الفكرة دم كل خارج عليهم ، مهما كانت نحلته أو مذهبه (إسماعيل ، 1975 ، 50). وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا

يفتكون بأفراد البيت الأموي فتكا ذريعا يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالًا (ضيف ، ب.ت ، 14).

ما سبق صورة موجزة عن بعض أشكال الصراع في العصر العباسي والذي دار بين الشيعة والعباسيين والذي جاهد فيه العباسيين للاحتفاظ بالخلافة بكل السبل. وكذا الصراع بين العرب والموالي والذي عكس وضع سياسي ومن ثم اجتماعي غير قائم على عدل ولا مساواة. هذا وهناك وجه آخر للصراع في هذا العصر سمي بصراع الشعوبية. وقد ذكر أحمد أمين أن العصر العباسي **كانت تسوده ثلاث نزعات في علاقة العرب بغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام** (إسماعيل ، 1975 ، 110):

النزعة الأولي: تذهب إلى أن العرب خير الأمم ، ولهم في ذلك حجج.

النزعة الثانية: تذهب إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم ولا أية أمة أفضل من غيرها.

النزعة الثالثة: تميل إلى الحط من شأن العرب ، وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم ، ولهم في ذلك حججهم. وأن أصحاب النزعتين الأخيرتين أطلق عليهم اسم الشعوبية.

وقد اتخذ عبد الرحمن الكواكبي من فترة الحكم العباسي مثلا للاستبداد. حيث يرى أن أشدّ مراتب الاستبداد التي يتعوَّذ بها من الشّيطان هي حكومة الفرد المطلق ، الوارث للعرش ، القائد للجيش ، الحائز على سلطة دينية. ورأى من الضروري الإجابة عن عدد من الأسئلة المهمة في إطار هذا الموضوع منها: ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما طبائع الاستبداد؟ لماذا يكون المستبدُّ شديد الخوف؟ لماذا يستولى الجبن على رعية المستبدّ؟ ما تأثير الاستبداد على الدّين؟

على العلم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على التربية؟ على العمران؟ مَنْ هم أعوان المستبدّ؟ كيف يكون التّخلص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟...كما يرى أن صلاح الأمة أو فسادها إنما يرجع إلى ممارسة الشورى أو الاستقلال في الرأي (الكواكبي ، 1902، 3-6).

اتضح مما سبق أن مظاهر الدولة الاستبدادية كما في عهد المنصور وأبي العباس السفاح وغيرهما كانت واضحة في علاقتها بالشعب سياسيا واجتماعيا واقتصادياً وثقافياً حيث كان ابن المقفع وغيره من المبدعين ضحية للعلاقة بين الدولة الاستبدادية والإبداع والمبدعين بها.

الحياة الاجتماعية:

عرف المجتمع في عهد الأمويين أربع طبقات متمايزة من حيث وضعها الاجتماعي والاقتصادي. ففي قمة التكوين الاجتماعي لذلك المجتمع كانت طبقة الأمراء من البيت الحاكم والإقطاعيين الأثرياء من العرب. ثم يلي هؤلاء طبقة عربية متوسطة ولكنها ميسورة الحال ، تتكون من العاملين في الخدمة بالجيش ومن المشتغلين بالتجارة. تليها طبقة الموالي ، وكانت في بداية أمرها أقل من المتوسطة ، ولكنها استطاعت بكثرتها ودورها الفعال في حياة المجتمع أن تحسن من وضعها الاجتماعي ، وأن تصبح الطبقة البرجوازية الصاعدة ، متسلحة لهذا بالخبرة والثقافة. وأخيرا تأتي طبقة العبيد والإماء ، وكانت الطبقة الدنيا في السلم الاجتماعي ولكنهم أيضا استطاعوا تغيير أحوالهم فشغل بعضهم المناسب الكبرى في الإدارة والجيش بل والخلافة أيضا (إسماعيل ، 1975 ، 253). إلا أن طابع الحياة بعامة في عهد الأمويين ظل عربياً فقد سكن الأمويين وأمراءهم القصور

في الشام وعرفوا كثير من وسائل التمدن التي خلفها الروم في المنطقة ولكنهم مع ذلك كانوا ما يزالون مشدودين إلى التقاليد العربية... لكن مع الاستبداد بالشعب واستعباده. ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم فوارى العباسيون أشخاصهم وأحكموا خطتهم (ضيف ، ب.ت ، 13). واستطاعت الدولة العباسية على المستويين الإداري والثقافي أن تثبت وجودها ، وأن تقوم بدور ملموس في الحياة السياسية والعلمية للمجتمع. واستقامت أمور الدولة العباسية بحنكة الخليفة أبي جعفر المنصور.

من خلال ما سبق نلحظ أن العصر العباسي شهد كثيرا من الأحداث والصراعات والتغييرات على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، والتي انعكست على سلوك الفرد والجماعة وقيم المجتمع والتشكل العام والحضاري للمجتمع في هذا العصر. وفي إنتاجه الفكري والأدبي والمادي أيضا. وتنوعت وتصارعت الملل والنحل والأهواء في هذا العصر، وتفاوتت الطبقات وتزايدت مجالس اللهو والزهد في المجتمع.

وقد كان الجدل القائم بين التاريخ (الماضي) والواقع (الحاضر) واضح في العصر العباسي عن العصر الأموي: ففي الأول لم يحسم اختياره بصفة جماعية حسما نهائيا ، لا لصالح الموروث من قيم العصور السابقة ، ولا لصالح القيم التي نشأت بالضرورة مع الإطار الحضاري الجديد وبسببه، فنزعت بعض النفوس للاختيار الأولي ونزعت الأخرى للاستجابة لدواعي التجارب الجديدة المتاحة. أما الثاني (عصر بني أمية) فظل مشدودا إلى حد بعيد على المستويين الاجتماعي والوجداني ، إلى تقاليده القديمة (إسماعيل ، 1975 ، 320).

هذا ومضي العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة ، وجميعهم يتبعون خليفة واحدا ، وإن وجدت ولايات لا تقر بالخليفة القائم بالأمر ورغم ما يقال عن العداء بين العباسيين والأمويين ، وصلة العباسيين بالفرنجة أعداء الأمويين ، وصلة الأمويين بالبيزنطيين أعداء العباسيين ، لكنها في الواقع لم تكن أكثر من صلات مجاملة وتبادل هدايا ووعود لم ينتج عنها أي حروب ، أو لقاء مؤمنين مع كافرين ضد مؤمنين آخرين (عبد الراضي ، ب.ت. ، 6).

الحياة العلمية والأدبية:

يعتبر كتاب **كليلة ودمنة** ثمرة الامتزاج بين تراث مجموعة من العوالم الثقافية ، العربية والهندية والفارسية والسيرانية واليونانية، التي انصهرت في بوتقة هذه البيئة الجديدة التي كانت سائدة في الحاضرة الثقافية للعباسيين . البصرة . في العصر العباسي الأول ، عصر الانجاز الحضاري العظيم في الحضارة العربية الإسلامية (النجار، 1995 ، 194). وازدهرت الحياة الثقافية والأدبية والحركة العلمية في العصر العباسي ، فكانت العامة من الناس تصيب حظوظا من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية. وبرزت صفوة من العلماء والأدباء قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها وقلوبها ما دعم الحضارة العربية (ضيف ، ب.ت ، 108). وفي الحياة الأدبية والثقافية ، خاصة بعد الفترة التي قتل فيها ابن المقفع (النصف الأخير من القرن الهجري الثاني) حدثت حركة نشطة في عملية التدوين للثقافة في شتى صورها وكان ذلك بتأثير التطور الحضاري الذي أصاب كل جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي

الجديد. (عياد وآخرون ، 1987 ، 307-308). فنقلت بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو ؛ ونقل كليلة ودمنة الهندي الأصل إلى العربية ، وفي ذلك إشارة إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلتهم (ضيف ، ب.ت ، 110). وهذا يشير إلى عمق التداخل والتفاعل الثقافي ، والحوار بين الثقافات المختلفة في هذا العصر. من ثم يمكن القول بأن كتاب كليلة ودمنة أنموذج لعملية التفاعل الثقافي والتنوع و التلاقح بين الثقافات وما يمكن أن يطلق عليه إنسانية الثقافة مع كون الثقافة ظاهرة إنسانية ، تتضمن رغم التنوع والاختلاف ، الوحدة الإنسانية خاصة في جانبها الوجداني.

تأسيساً على ما سبق يكون ابن المقفع قد رافق الأزمات السياسية في زمن الدولتين الأموية والعباسية. وانتهت حياته في خضم أحد تلك الأزمات في عهد المنصور. ولأن الأديب ابن عصره فقد كان الأديب في العصر العباسي عليه أن يصدق التعبير عن تجربته الذاتية تلك المرتبطة ارتباطا وثيقا ببيئته وعصره فقد تمكن عبدالله ابن المقفع من الارتباط بعصره والتعبير عن بيئته وأحوال مجتمعه وخاصة السياسية ، والعلمية منها ، فكانت ترجمته لبعض أبواب كتاب كليلة ودمنة وتأليفه للبعض الآخر؛ سببا للسخط والقتل في عهد أبي جعفر المنصور.

❖ ثانياً: نشأة ابن المقفع وحياته وسماته ومؤلفاته:

نشأته وثقافته وعمله وسماته:

عبد الله بن المقفع هو أبو محمد عبد الله روزبة بن دازويه المشهور بإبن المقفع الفارسي الأصل ، وعربي الدين واللغة والجنسية. ولد سنة 724م - 106 هـ في قرية بفارس تدعى (جور) وهي مدينة (فيروز أباد) الحالية. عرف كثير عن أداب الهند ، ونشأته الأولى في فارس حيث الثقافة الفارسية ، ودان بالزرا دشتية وهي دين الفرس. ثم قدم إلى البصرة مركز الثقافة العربية في ذلك العهد فاتصل بعلمائها واستمع إلى مدرسيها في المساجد وغيرها ، واختلط بمن نزلها من عرب البادية ذوي الفصاحة وجزالة اللفظ ، فأدرك قسطا وافرا من الأدب وروعة البيان.

وقد ولد عبد الله بن المقفع في عهد الدولة الأموية المروانية في عهد هشام بن عبد الملك (105-125هـ). وقد كثرت وتوالت الفتوحات الإسلامية في عهد تلك الدولة وتوالى خلفاؤها بدءا بمعاوية بن أبي سفيان حيث اتسع الغزو من غرب افريقية إلى البحر الأبيض المتوسط كله وبلاد ما وراء النهر والأفغان ، فسواحل المحيط الهندي على بلاد الهند ، وانتهاء بمروان بن محمد بن مروان (127-132هـ) (عبد الراضي ، ب.ت. ، 439-440). ومن ثم كثرت المعارك والغزوات والتي أظهرت بطولات متعددة للجيوش المسلمة.

وعندما اشتهر ابن المقفع طلبه كبار الأمراء والولاة ليكتب لهم ويجيب على الرقاع التي تأتيهم وكان الكاتب البارع في هذا العهد يصل إلى أعلى المراتب وأرقاها وإن كان ابن المقفع بعيدا عن استجداء الخلفاء بشعره وأسلوب، فهو

شابا يحسن الكتابة ، ويحسن الترجمة وكتابة الرسائل والتعليق على الرقاع والعمل في الدواوين.

اشتهر في شبابه بسعة ثقافته الفارسية والهندية واليونانية ، بالإضافة إلى فصاحة بيانه العربي ما جعله كاتبا في دواويين الدولة الأموية ، أما في الدولة العباسية فقد عمل ابن المقفع كاتبا لدى عيسي بن علي ابن عم الخليفة المنصور وأسلم ابن المقفع على يد عيسي بن علي ، وقيل أنه قتل بسببه. كما اشتهر ابن المقفع بالأخلاق الكريمة فكان عطوفا ، عاشقا لحميد الصفات ومكارمها ، شغوفا بالجمال ، مؤمنا بقيمة الصداقة وإغاثة الملهوف.

مؤلفاته ونتاجه:

تميز ابن المقفع بأسلوبه الرشيق السهل ، وكان ينصح باختيار أسهل الألفاظ ، ويقول: إن خير الأدب ما حصل لك ثمرة وبان عليك أثره.

وقد نقل عبد الله بن المقفع أول عمل نثري له شأن في العربية "كليلة ودمنة" عن اللغة الفهلوية الفارسية القديمة والذي نقل إليها عن اللغة السنسكريتية الهندية وقد كتبه في الأصل الفيلسوف الهندي "بيدبه" إلى "دبشليم الملك". ومما يجدر الإشارة إليه أن ابن المقفع قد زاد عليه ستة فصول حيث نسج على منوال مادة الكتاب امتداداً طبيعياً من لحم ودم هذه المادة الأدبية (الريس ، 2007 ، 117). وترجم ابن المقفع الكتاب إلى اللغة العربية حوالي 750م تحت عنوان ، كليلة ودمنة بعد الغزو الإسلامي لبلاد فارس وتعتبر نسخة ابن المقفع نموذجا لأسلوب النثر العربي الراقي(*Tymieniecka, A-T*,2011, 43)

ويعد كتاب "كليلة ودمنة" من أشهر وأهم كتب ابن المقفع والذي حاول من خلاله بث آرائه السياسية في منهج الحكم. تؤكد بعض الأبحاث الحديثة أن كليلة ودمنة من تأليف ابن المقفع وليست مجرد ترجمة ويعتقد البعض أن الآراء التي أوردها ابن المقفع في كليلة ودمنة كانت أحد الأسباب المباشرة لنهايته الأليمة لما فيه من نقد صريح لسياسة الضغط والإرهاب والديكتاتورية وتقييد الحريات والدعوة للإصلاح والتعمير. وهناك مؤلفات عديدة لابن المقفع منها: الدرة الثمينة والجوهرة المكنونة ، فردك ، باري ترمينياس ، أنالوطيقا (تحليل القياسي). في عادات الفرس ، التاج في سيرة أنوشروان ، والأدب الصغير ورسالة الصحابة وغيرها.

يقول طه حسين: "إن كل أديب لا يستقي مادته وروحه من حياة الشعب ليس أديبا ولا بكاتب للأدب وعلى ذلك فلابد من أن يعرف ماذا يقول الشعب وكيف يعيش الشعب وكيف يحكي حكاياته وأقاصيصه" (حسين ، 1997 ، 13). لقد حاول ابن المقفع بمكره تفادي سخط السلطة فلبس لباس المتخيل المراوغ الذي يحاكم السلطة وينقد أعمالها المستبدة ويقدمها للشعب دون أن يتعرض للرقابة السلطوية ولكنه لم يسلم منها. وراح الأديب المبدع ، ضحية السياسة والخلافات السياسية داخل الأسرة العباسية ، ولم يقتل كخصم سياسي.